مجلة
جامعة الهرة
للعلوم الإنسانية
مجلة علمية نصف سنوية محكمة
العدد التاسع عشر- رجب 1447هـ- ديسمبر 2025
ISSN: 2707- 8655
EISSN:2707-8663

https://doi.org/10.71311/.v6i2.233

صُلْحُ الحُدَيْبِيَةِ
التأصيل الشرعي لمفاهيم: التنمية والوطن والاقتصاد والرؤية

د. أسامة بن إبراهيم التركي
الأستاذ المشارك بقسم العقيدة في كلية العقيدة والدعوة، بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
a.alturki@iu.edu.sa

تاريخ إرسال البحث للمجلة 2025/2/13 تاريخ قبول البحث 2025/3/13
تاريخ نشر البحث 2025/12/23

ملخص:

تناول الباحث موضوع مفاهيم التنمية والوطن والاقتصاد والرؤية من خلال صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ، ويهدف الباحث إلى استلهام الواقع النبوي، واستجلاء تلك المفاهيم من خلال تناول حدث محوري من أحداث السيرة النبوية، واستدعاء دلالته على موضوع البحث، والمشكلة التي يحاول الباحث تناولها في بحثه هي أسلمة مفاهيم التنمية والوطن والاقتصاد والرؤية من خلال التطبيقات النبوية والواقع العملي للإسلام المتمثل بالهدي النبوي، وقد رتّب الباحث أفكاره في: مقدمة يُعرّف فيها ببحثه، وتمهيد فيه إلمامة سريعة بصلح الحديبية وأهم أحداثه ومكانته، ثم تلته ثلاثة مباحث: تناول في أولها مفهوم بناء الوطن من خلال صلح الحديبية، وتناول في ثانيها مفهوم التنمية والاقتصاد من خلال صلح الحديبية، وتناول في ثالثها مفهوم الرؤية المستقبلية من خلال صلح الحديبية، ثم انتهى الباحث إلى خاتمة استجلى فيها أهم النتائج التي اختصرها في: ضرورة أسلمة المفاهيم الحضارية والتنموية المعاصرة وربطها بالشرع، أهمية تعزيز المفاهيم الحضارية والتنموية بالجانب الشرعي وإسهام ذلك في تنمية الأوطان الإسلامية لحضور البعد الديني فيها، ثراء السيرة النبوية كتطبيقات عملية شرعية للمفاهيم التنموية والوطنية، البعد الإسلامي لواقع التنمية في

المملكة العربية السعودية وتميزه في كونه نموذجًا استثنائيًّا للتطور الحضاري والتنموي الإسلامي للوطن، ثم أردف الباحث بفهارس كاشفة لمظان بحثه.

الكلمات المفتاحية: صلح الحديبية، التنمية، الوطن، الاقتصاد، الرؤية.

The Treaty of Al-Hudaybiyyah: The Islamic Legal Foundation for the Concepts of Development, Homeland, Economy, and Vision

Dr. Osama bin Ibrahim Al-Turki
Associate Professor, Department of Islamic Doctrine, College of Islamic Doctrine and Dawah, Islamic University of Madinah.

Abstract:

This research explores the concepts of development, homeland, economy, and strategic vision through an analysis of the Treaty of Al-Hudaybiyyah. The study aims to draw inspiration from the Prophetic precedent (Al-Wāqiʿ al-Nabawī) and elucidate these modern concepts by examining a pivotal event in the Prophetic biography (Al-Sīrah) and deriving its contemporary relevance.

The core problem the research addresses is the need to ground contemporary civilizational and developmental concepts within an authentic Islamic framework, using the practical applications and guidance demonstrated by the Prophet Muhammad (peace be upon him).

The research is structured into an introduction, which outlines the study's framework, a preliminary chapter providing a concise overview of the Treaty of Al-Hudaybiyyah—its key events and its historical and doctrinal significance—followed by three main chapters:

· The first chapter discusses the concept of nation-building (building the homeland) as derived from the treaty.

· The second chapter examines the concepts of development and economy through its stipulations and outcomes.

· The third chapter analyzes the concept of future vision and strategic foresight embodied in the event.

The study concludes by presenting its key findings, which include:

1. The necessity of Islamizing contemporary civilizational and developmental concepts by linking them directly to Islamic law (Shari'ah).

2. The importance of reinforcing civilizational concepts with their Sharʿī foundations, which contributes to the development of Islamic nations by integrating the religious dimension.
3. The richness of the Prophetic biography as a source of practical, Sharʿī-based applications for developmental and national concepts.
4. The distinctively Islamic character of the development model in the Kingdom of Saudi Arabia, highlighting it as an exceptional paradigm for Islamic civilizational and national progress.
The research concludes with indexes of its sources and references.

Key words: Treaty of Al-Hudaybiyyah, Development, Homeland, Economy, Vision, Islamization of Concepts.

مقدمة

الحمد لله كما حمد نفسه فهو خير من حمد، وأشهد ألا إله إلا الله الواحد الأحد الفرد الصمد، هو المستعان وإليه الملتجأ وعليه المعتمد، وأشهد بالرسالة لخير خلقه وأشرف رسله محمد، صلى الله وسلم عليه فهو الحامد الأحمد، وعلى آله وصحبه السادة العمد، صلاة وسلامًا بلا عدد ولا أمد، أما بعد:

فإن نعم الله علينا لا تُحصى بالتعداد، فهي متكاثرة في ازدياد، ومتنوعة ما بين إيجاد وإمداد، وإرشاد وإسعاد، ومن تلك النعم ما نعيشه من الرخاء والخير في هذه البلاد، وكثير من بلاد المسلمين، وإن البلد الطيب والعيش الرغيد الموفور، ليستدعي شكر الرب الشكور، كما قال تعالى في الكتاب المسطور: {كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ} [سورة سبأ:15].

وإن ربط واقع العباد والبلاد، وما هم فيه من رخاء وإرفاد، بهدي خير العباد ﷺ، من أعظم ما يُنال ويُستفاد، وهو مما يمنّ به الله على من يشاء من التوفيق والرشاد.

ولما كان من نعم الله علينا في هذا المملكة، والديار المقدسة والأرض المباركة، أن حبانا بدولة رشيدة مدركة، وولاة ذوي همم عالية وعقول محنكة، أردت أن استجلي ما نعيشه من الواقع، مما جاء على لسان الشارع، فأجمع بين الدنيا والدين، والرأي والوحي، والوطن والسنن، لتكون نهضتنا السعودية جامعة بين الدين والدنيا، والخصوصية والعالمية، والسلفية والتحضر، والأصالة والمعاصرة، وثبات القيم وتجدد الآليات.

فكان هذا البحث اللطيف المختصر، والمقال الوجيز المعتصر، الذي هو شيء قليل

مما نقدمه لوطننا المملكة العربية السعودية، ولولاة أمرنا، وعلى رأسهم الملك سلمان بن عبد العزيز، وولي عهده الأمير محمد بن سلمان -وفقهما بتوفيقه، وأيدهما بتأييدها-:

"يَمينًا لَنِعْمَ السَّيدَانِ وُجِدْتُمَا عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحيْلٍ وَمُبْرَمِ"[1]

وقد سميت هذا البحث بـ: (صلح الحديبية، التأصيل الشرعي لمفاهيم: التنمية والوطن والاقتصاد والرؤية)، وقد أهديته لهذا الوطن، فأسأل الله أن يتقبله بقبول حسن.

مشكلة البحث:

- ما هي علاقة الشرع بمفاهيم التنمية والوطن والاقتصاد والرؤية؟
- كيف نستلهم من سيرة النبي ﷺ ما يعزز مفاهيم التنمية والوطن والاقتصاد والرؤية؟
- ما أوجه دلالة أحداث صلح الحديبية على مفاهيم التنمية والوطن والاقتصاد والرؤية؟

حدود البحث:

- مسائل التنمية والوطن والاقتصاد والرؤية.
- المنظور الشرعي والرؤية الدينية للمسائل السابقة.
- أحداث صلح الحديبية ودلالتها على المسائل السابقة.

أهمية البحث:

- أهميته من جهة تعلقه بالوطن والتنمية والرؤية.
- أهميته من جهة تناوله للمسائل من الجانب الشرعي.
- أهميته من جهة استلهام السيرة النبوية في الواقع لكونها التطبيق النبوي العملي للإسلام.

الدراسات السابقة:

لم أجد –حسب اطلاعي، والله أعلم- دارسة علمية تربط مفاهيم التنمية والوطن والاقتصاد والرؤية بأحداث صلح الحديبية، وإنما هي كتابات متنوعة، منها ما هو متعلق بتوثيق أحداث القصة، ومنها ما هو متعلق بما يستفاد منها على وجه العموم.

---

(1) البيت لزهير بن أبي سُلمى في معلقته. انظر: شرح المعلقات السبع: 139. قال ابن قتيبة في معنى البيت: أي: نعم السيدان وجدتما حين تُفاجآن لأمر محكم وأمر لم يحكم. المعاني الكبير في أبيات المعاني 2/ 880.

خطة البحث: انتظم البحث في: مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وفهارس، وتفصيلها فيما يأتي:

المقدمة ففيها: الافتتاحية، وأسباب اختيار البحث، وأهميته، وحدوده، وخطته.

التمهيد ففيه: التعريف بصلح الحديبية، وذكر أهم أحداثه اختصارًا، وبيان مكانته.

المبحث الأول: صلح الحديبية وبناء الوطن.

المبحث الثاني: صلح الحديبية والتنمية والاقتصاد.

المبحث الثالث: صلح الحديبية والرؤية المستقبلية.

الخاتمة ففيها: أهم النتائج والتوصيات.

منهج البحث وإجراءاته:

- اعتمدت في كتابة البحث على المنهج الاستقرائي والتحليلي.
- عزوت الآيات القرآنية إلى مواضعها من المصحف الشريف بذكر اسم السورة ورقم الآية دون رقم الصفحة، واعتمدت على مصحف مجمع الملك فهد بالمدينة النبوية، وأثبت العزو في أصل البحث دون الحاشية.
- اكتفيت في عزو الحديث بتخريجه من الصحيحين أو أحدهما، وإذا لم يكن فيهما اكتفيت بذكر مصدرين أو ثلاثة، واكتفيت في عزو الحديث بذكر الكتاب والجزء والصفحة، وبذكر عالم واحد حكم عليه.
- أرجع -قدر المستطاع- في عزو النقول إلى مظانها الأصلية من مصادرها.
- أضفت تاريخ الوفاة للأعلام غير المشهورين، ولم أترجم لهم حتى لا يخرج البُحيث عن قصده.
- جريت في كتابة البحث وفق الكتابة الإملائية الحديثة، والصناعة البحثية الأكاديمية.

التمهيد

التعريف بصلح الحديبية، وذكر أهم أحداثه باختصار، وبيان مكانته

يمكن الكلام عن حادثة الحديبية باختصار من عدة جهات:

أولاً: تعريفها: يمكن تعريف صلح الحديبية تعريفًا تقريبيًّا، فيقال: هو الصلح الذي وقع في دولة الإسلام التي عاصمتها المدينة، وقائدها النبي محمد ﷺ؛ وبين دولة قريش التي عاصمتها

مكة، وقائدها أبو سفيان ﷺ قبل إسلامه؛ في السنة السابعة للهجرة في مكان قرب مكة اسمه الحديبية، وكان سببًا في فتح مكة وغيرها.

ثانيًا: اسمها:

لقد اختلف في تسميات أهل السيرة والتاريخ لهذا الحدث العظيم: فمنهم من يسميه بـ: أمر الحديبية، ومنهم من يسميه بـ: قصة الحديبية، ومنهم من يسميه بـ: عمرة الحديبية، ومنهم من يسميه بـ: صلح الحديبية، ومنهم من يسميه بـ: غزوة الحديبية[1]، وهذا التسميات من باب اختلاف التنوع، وهي عائدة إلى أمرين: إما تسمية عامة للحدث، أو تسمية خاصة للحدث بأهم وقائعه، وأشهر أسمائها عند الصحابة: الفتح، وسيأتي بيان ذلك.

ثالثًا: مكانها:

مكان هذه الحادثة هو الحديبية، وبه سُمّيت، والحديبية: "بضم الحاء، وفتح الدال، وياء ساكنة، وباء موحدة مكسورة، وياء اختلفوا فيها: فمنهم من شددها، ومنهم من خففها ...، وهي قرية متوسطة ليست بالكبيرة، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بويع رسول الله ﷺ تحتها، وقال الخطابي في أماليه: "سميت الحديبية بشجرة حدباء كانت في ذلك الموضع"، وبين الحديبية ومكة مرحلة، وبينها وبين المدينة تسع مراحل ...، وبعض الحديبية في الحل وبعضها في الحرم، وهو أبعد الحل من البيت"[2].

رابعًا: سببها:

"وسبب هذه الغزوة أنه أُري رسول الله ﷺ في المنام بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام، وأخذ مفتاح الكعبة بيده، وطافوا واعتمروا، وحلق بعضهم وقصر بعضهم، فأخبر بذلك أصحابه؛ ففرحوا وحسبوا أنهم داخلو مكة عامهم ذلك، فأخبر أصحابه أنه معتمر فتجهزوا للسفر"[3]، ويشهد لهذا قوله تعالى في سورة الفتح - التي تُعدُّ السورة المتفردة بتفاصيل هذا الحدث العظيم-: {لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ} [سورة الفتح:27]، وجاء في حديث المسور بن مخرمة (ت:64 هـ) ومروان (ت:65هـ) -رضي الله عنهما - الذي يُعدُّ الحديث الأم في ذكر قصة الحديبية- أن عمر

(1) مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة.: 14.

(2) معجم البلدان: 2/ 229.

(3) تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس: 2/ 16؛ المغازي.:2/ 572؛ إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع: 1/ 274.

ﷺ قال للنبي ﷺ: ((يا رسول الله، أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟))[1]، وفي رواية عند أحمد: ((وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ))[2]، فدل ذلك كله على أن النبي ﷺ حدثهم قبل مجيئهم إلى الحديبية بالرؤيا.

خامسًا: زمانها:

أما يوم ابتداء الخروج إليها فكان يوم الاثنين، وأما الشهر فهو شهر ذي العقدة، وأما السنة فهي السنة السادسة للهجرة، وأما تاريخه فهو أول يوم في الشهر، فهي في: 7/11/1هـ قال ابن سعد (ت:٢٣٠هـ): "ثم غزوة رسول الله ﷺ الحديبية. خرج للعمرة في ذي القعدة سنة ست من مهاجره، قالوا: استنفر رسول الله ﷺ أصحابه إلى العمرة فأسرعوا وتهيئوا، ودخل رسول الله ﷺ بيته فاغتسل ولبس ثوبين، وركب راحلته القصواء وخرج. وذلك يوم الاثنين لهلال ذي القعدة"[3].

وقال المقريزي (ت:845هـ): "وخرج من المدينة يوم الاثنين لهلال ذي القعدة. هذا هو الصحيح، وإليه ذهب الزهري، وقتادة، وموسى بن عقبة، ومحمد بن إسحاق، والواقدي"[4].

سادسًا: مجمل أحداثها:

اختصر أهم أحداث هذه الغزوة غير واحد من المؤلفين في السيرة[5]، قال الحلبي (ت:٧٧٩هـ): "خرج النبي ﷺ في ذي القعدة إلى العمرة، واستنفر أصحابه المتبعين قوله الممتثلين أمره، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، ومضى في ألف وأربعمائة مقيم على طاعة الحي القيوم، لم يصحب غير سلاح المسافر، ولم يقصد حرب مشرك ولا كافر، وساق من الهدي سبعين بدنة، وأحرم ولبى موضحًا للناس شرعه وسننه، وسار مظللاً بغمام النِعم، حتى دنا من الحديبية وهي طرف الحرم، وبلغ قريشًا خروجه في أصحابه الكرام، فأجمعوا رأيهم على صده عن المسجد الحرام، وبادروا إلى جمع الرجال، وخرجوا مستعدين للقتال، ولبسوا جلود النمور، وغرهم بالله الغرور، وراسلوه بمنعه من الدخول إلى سربهم، بعد أن عرفهم أنه إنما جاء للزيارة لا لحربهم، ثم عقد الصلح بينهم على وضع الحرب عشر سنين كوامل، وعلى أن ينصرف عنهم ثم يدخل عليهم في العام القابل، وفي هذه الغزوة كانت بيعة الرضوان، وفيها أقيمت صلاة الخوف خشية ذوي الجور والعدوان، وفيها نزلت سورة

---

(1) صحيح البخاري: 3/ 196.

(2) مسند الإمام أحمد: 31/ 221. قال المحقق شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن، محمد بن إسحاق، وإن كان مدلسًا وقد عنعن إلا أنه قد صرح بالتحديث في بعض فقرات هذا الحديث، فانتفت شبهة تدليسه، ثم إنه قد توبع ...، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين.

(3) الطبقات الكبرى: 2/ 72-73.

(4) إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع: 1/ 275.

(5) شرف المصطفى: 3/ 55-56؛ إنارة الدجى في مغازي خير الورى صلى الله عليه وسلم.: 482.

الفتح المبين، وفيها ظهرت معجزة نبع الماء من البئر الضنين[1]، وفيها أنزل الله على رسوله وعلى المؤمنين السكينة، ولما فرغ ﷺ نحر هديه وحلق رأسه ثم قفل إلى المدينة"[2].

سابعًا: فضلها:

وأما فضلها وما ترتّب عليها من حِكَمٍ وفوائد فهي أكبر وأجل من أن يحيط بها إلا الله الذي أحكم أسبابها، فوقعت الغاية على الوجه الذي اقتضته حكمته وحمده"[3]، ويكفي في فضلها أن سماها الله في كتابه بالفتح، فقال: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا}[سورة الفتح:1]، وقال رجل للنبي ﷺ: أفتح هو؟ قال: ((نعم؛ والذي نفس محمد بيده إنه لفتح))[4]. وكان الصحابة -رضي الله عنهم- لا يسمون الفتح إلا صلح الحديبية لا فتح مكة خلافًا لما اشتهر عند الناس، قال البراء بن عازب (ت:72هـ) رضي الله عنه: ((تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية))[5]. وسبب تسمية هذا الحدث بالفتح -والله أعلم- ما قاله ابن القيم: "وحقيقة الأمر أن الفتح في اللغة فتح المغلق، والصلح الذي حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدودًا مغلقًا حتى فتحه الله"[6].

قال الزهري: "فما فتح في الإسلام فتحٌ قبله، كان أعظم منه"[7].

وقال ابن عبد البر: "ليس في غزوات الرسول ﷺ ما يعدل بدرًا أو يقرب منها إلا غزوة الحديبية"[8].

المبحث الأول صلح الحديبية وبناء الوطن

إن من أعظم الركائز التي تقوم عليها أي أمة من الأمم هو الوطن والدولة والبعد الجغرافي والأساس البلداني، فأمة بلا وطن أمة مشردة ضائعة تائهة، بل هي أشبه بقطيع ضال بلا مأوى في ليل شات وقد طرقها الذئب. لقد كان مشروع إقامة الوطن وبناء الدولة من أوليات المشاريع النبوية، وهو مشروع يخدم الهدف النبوي الأعظم وهي الرسالة والدين

---

(1) أي البئر الجاف الذي ليس فيه ماء.

(2) المقتفى من سيرة المصطفى: 1/ 178-179.

(3) زاد المعاد في هدي خير العباد: 3/ 275.

(4) مسند الإمام أحمد:24/ 213؛ سنن أبي داود: 4/ 368؛ قال الحاكم: هذا حديث كبير صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين: 2/ 143.

(5) صحيح البخاري: 5/ 122.

(6)زاد المعاد في هدي خير العباد: 3/ 275.

(7) السيرة النبوية: 322/2.

(8) شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد: 1/ 278.

والدعوة، ولا يمكن تحقيق ذلك الهدف بهدوء وطمأنينة إلا بوجود الأوطان التي تحتضن الأديان، وبالدولة التي تؤيد الدعوة. ولقد حاول النبي ﷺ أن يجد وطنًا في مكة والحبشة والطائف تقوم عليها الشريعة الإلهية الجديدة، فلم يمكّنه أهل تلك البلاد، فكانت المدينة هي الوطن الأول للإسلام، والوجهة الأولى للإسلام، فأقام عليها النبي ﷺ دولة الإسلام الأولى.

لقد كان صلح الحديبية علامة فارقة ولحظة مفصلية وحدثًا محوريًّا في بناء الوطن وقيام الدولة، وكان من أعظم المقاصد النبوية العظيمة التي تجلت في مفاوضات صلح الحديبية انتزاع الاعتراف بدولته والإقرار بوطنه.

لقد كان كثير من العرب وأهل الجزيرة العربية يرقبون بقلق ولهفة واضطراب ما يجري من الأحداث الساخنة - في الجزيرة العربية عمومًا وفي الحجاز خصوصًا- من حروب عسكرية واقتصادية ولسانية بين محمد ﷺ وبين قريش.

فطرف الحرب الأول: النبي ﷺ وأصحابه، ذوو الدولة الفتية الناشئة الجديدة، والوطن الذي تعصف به مكائد قريش واليهود والأعراب وهو المدينة.

والطرف الآخر: هو قريش وموطنها مكة، وقد جمعت بين عراقة النسب فهم أعلى العرب نسبًا، وعراقة الموطن فهم أهل مكة أشرف البلاد، وعراقة المنصب فهم أهل الحرم، وهم قادة الناس في أعظم مناسبة دينية عند العرب وهي الحج.

لقد كانت قريش ترى النبي ﷺ وأصحابه -وكانت تلك الفكرة التي كانت تريد أن توصلها للناس وتقنعهم بها- مجموعة من المنشقين والمتمردين والصُباة، ولا تراهم أصحاب دولة ووطن وكيان، فلم تكن تعترف بموطنهم ولا بدولتهم، بل كانت تهدد كل من ينصرهم من أهل ذلك الوطن الجديد (المدينة)، حتى قال صنديد من صناديد قريش -وهو أبو جهل- مهددًا لسيد من سادة أهل ذلك الوطن -وهو سعد بن معاذ- وقد رآه يطوف بمكة: "ألا أراك تطوف بمكة آمنًا، وقد أويتم الصباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم ..."[1].

لذلك كانت العرب وأهل الجزيرة تنظر بترقب وقلق وحذر إلى هذه المعارك الساخنة بين الخصمين التقليديين وإلى ما بينهم من حرب ذات سجال[2]، بل تعلّق إسلامها بانتصار أحد

(1) صحيح البخاري: 5/ 71.

(2) قال أبو سفيان ﷺ قبل إسلامه لهرقل عن النبي ﷺ: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه، المرجع السابق. 1/ 9؛ و صحيح مسلم.: ١٦٣.

الطرفين، يذكر لنا هذا صحابي جليل اسمه عمرو بن سلمة (ت:85هـ) ﷺ، يقول: "كانت العرب تَلَوّمُ[1] بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة أهل الفتح، بادر كل قوم بإسلامهم، وَبَدَرَ أَبِي قَوْمِي بِإِسْلَامِهِمْ"[2].

لقد استطاع النبي ﷺ من خلال صلح الحديبية تحقيقَ هدفٍ سامٍ ومقصدٍ عظيمٍ وهو أن ينتزع من قريش - والعرب من ورائها- الاعتراف بدولته، والقبول بوطنه الجديد، وإثبات وجود الكيان المحتضن لدعوته.

إن قبول قريش بالتفاوض ندًّا إلى ندٍّ مع من كانت بالأمس تراه وأصحابه صباة ومارقين ولا تعترف بدولته ولا بوطنه، لأكبر إنجاز سياسي وطني يكتسب به النبي ﷺ المشروعية السياسية لدولته والاعتراف الضمني المعلن من قريش بوطنه.

وهناك هدفٌ سامٍ ثانٍ تحقق من خلال صلح الحديبية، وهو تأمين النبي ﷺ لوطن الدعوة وبلد الإسلام ومحضن الدولة، إن تحقق الأمان من أعظم أسباب بناء الأوطان واستقرارها، وتأمل معي في هذه المفارقة العجيبة: فقبل سنتين أو يزيد كانت قريش وحلفاؤها تحاصر دعوة النبي ﷺ ودولته الفتية وموطنه الجديد، وذلك في غزوة الأحزاب التي جمعت بين الحرب العسكرية والحصار الاقتصادي والإرهاب النفسي، والآن تجلس معه على مائدة مفاوضات واحدة، وتقبل بأن يكون بينهما مفاوضات ومساومات، وتعقد معه مؤتمرًا دوليًّا تسمع به العرب والناس قاطبة لتأمنه ويأمنها، يا له من إنجاز! فاستطاع ﷺ من خلال صلح الحديبية تأمين الحدود الجنوبية والجبهة القِبْلية لوطنه، وتحييد العدو الذي يزعزع استقرار بلده، ولذلك كان انكفاف قريش عن حربه من أعظم النعم التي امتنَّ الله بها على نبيه وأصحابه، فقال تعالى: {وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ} [سورة الفتح: 20]، فهو "امتنان عليهم بنعمة غفلوا عنها حين حزنوا لوقوع صلح الحديبية، وهي نعمة السلم"(3). لقد كان صلح الحديبية سببًا في ظهور قوة النبي ﷺ التي أمِن بها وطنه، فانكفت به قريش وغيرها من اليهود والأعراب، فكان ذلك سببًا في الأمن وانكفاف الخصوم المحدقين بالوطن

(1) قال ابن حجر: قوله: ((تَلَوَّم بإسلامها الفتح)) أي: تنتظر أراد تتلوم فحذف إحدى التاءين تخفيفًا، فتح الباري شرح صحيح البخاري: 1/ 184.

(2) صحيح البخاري: 5/ ١٥٠.

(3) التحرير والتنوير: 26/ ١٧٧.

المحتضن للدعوة، وحَمْلُ الآية على العموم أفضل وأشمل، قال ابن القيم في معنى قوله: {وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ}: "فقيل: أيدي أهل مكة أن يقاتلوهم، وقيل: أيدي اليهود حين هموا بأن يغتالوا من بالمدينة بعد خروج رسول الله ﷺ بمن معه من الصحابة منها. وقيل: هم أهل خيبر وحلفاؤهم الذين أرادوا نصرهم من أسد وغطفان. والصحيح تناول الآية للجميع، ... وقوله: {وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ} [سورة الفتح: 20] قيل: هذه الفعلة التي فعلها بكم وهي كف أيدي أعدائكم عنكم مع كثرتهم، فإنهم حينئذ كان أهل مكة ومن حولها وأهل خيبر ومن حولها وأسد وغطفان، وجمهور قبائل العرب أعداء لهم، وهم بينهم كالشامة، فلم يصلوا إليهم بسوء، فمن آيات الله سبحانه كف أيدي أعدائهم عنهم، فلم يصلوا إليهم بسوء مع كثرتهم وشدة عداوتهم، وتولي حراستهم وحفظهم في مشهدهم ومغيبهم"(1). وقال ابن كثير: "أي: لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال. وكذلك كف أيدي الناس الذين خلفتموهم وراء أظهركم عن عيالكم وحريمكم"(2).

بل إنه بعد صلح الحديبية تفرغ لتأمين وطن الدعوة ومحضن الإسلام من باقي الأعداء المتربصين به من الأعراب واليهود؛ ولذلك كانت غزوة خيبر من أعظم نتائج صلح الحديبية وأكبر الأحداث بعدها، ولذلك بشرهم الله به فقال: {وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ} [سورة الفتح:20]، وسيأتي تفصيل القول في الآية في المبحث الآتي.

وهناك هدفٌ سامٍ ثالثٌ تحقق من خلال صلح الحديبية يتعلق ببناء الوطن، وهو الانفتاح على العرب وعلى العالم، وتعريف الناس بالوطن الجديد الذي يحتضن الدعوة الإسلامية، لقد كان النبي ﷺ يهدف إلى إشهار وإظهار شأن دعوته ودولته ووطنه، لقد كانت حرب قريش له حائلاً كبيرًا يحول دون تعريف الناس بذلك، وكانت حجر عثرة دون الانفتاح على العالم، وكان هذا مقصدًا صرّح به النبي ﷺ وهو يخبر بضعف قريش وإصابتها بالإرهاق، فقال ﷺ: ((يا ويح قريش، لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس،

(1) زاد المعاد في هدي خير العباد: 3/ 278.

(2) تفسير القرآن العظيم.: 7/ 341.

فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون))(1). إن "هذه الهدنة كانت من أعظم الفتوح؛ فإن الناس أمن بعضهم بعضًا، واختلط المسلمون بالكفار، وبادَؤُوهم بالدعوة وأسمعوهم القرآن، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين، وظهر من كان مختفيًا بالإسلام، ودخل فيه في مدة الهدنة من شاء الله أن يدخل، ولهذا سماه الله فتحًا مبينًا"(2)، قال الزهري: "فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضًا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك"، ثم عقّب ابن هشام على كلام الزهري بقوله: "والدليل على قول الزهري: أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله، ثم خرج في عام الفتح بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف"(3).

فـ"لم يبق إذًا ريب في أن عهد الحديبية فتح مبين -وهو قد كان كذلك- وقد أثبتت الأيام أن هذا العهد حكمة سياسية وبعد نظر كان لهما أكبر الأثر في مستقبل الإسلام وفي مستقبل العرب كله. فقد كانت هذه أول مرة اعترفت قريش فيها بمحمد [ﷺ] لا على أنه ثائر بها خارج عليها، ولكن على أنه ندها وعدلها؛ فاعترفت بذلك بالدولة الإسلامية وقيامها. ثم إن إقرارها للمسلمين بحق زيارة البيت، وإقامة شعائر الحج، اعتراف منها بأن الإسلام دين مقرر معترف به من أديان شبه الجزيرة، وهدنة السنتين، أو السنوات العشر، قد جعلت المسلمين يطمئنون من ناحية الجنوب ولا يخشون غارة قريش، ومهدت للإسلام أن يزداد انتشارًا. أفليست قريش ألدّ أعدائه وأشد محاربيه قد انتهت بالإذعان لما لم تكن تذعن له من قبل قطّ!"(4).

لقد أكد صلح الحديبية أن في المؤتمرات والاتفاقيات والمعاهدات اعتراف بالوطن، وتعريف به، وإثبات لكيانه، وإقرار بسيادته، وتعزيز لأمنه، وتقوية لاستقراره، ودرء للفتن والمخاطر عنه. "إن هدنة الحديبية كانت بداية طور جديد في حياة الإسلام والمسلمين، فقد

---

(1) مسند الإمام أحمد: 31/ 221.

(2) زاد المعاد في هدي خير العباد: 3/ 275.

(3) ، السيرة النبوية: 2/ 322.

(4) حياة محمد صلى الله عليه وسلم.: 238؛ الرسول القائد: 287؛ الرحيق المختوم: 280؛ السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة.:2/ 340.

كانت قريش أقوى قوة وأعندها وألدها في عداء الإسلام، وبانسحابها عن ميدان الحرب إلى رحاب الأمن والسلام انكسر أقوى جناح من أجنحة الأحزاب الثلاثة - قريش وغطفان واليهود- ولما كانت قريش ممثلة للوثنية وزعيمتها في ربوع جزيرة العرب، انخفضت حدة مشاعر الوثنيين، وانهارت نزعاتها العدائية إلى حد كبير؛ ولذلك لا نرى لغطفان استفزازًا كبيرًا بعد هذه الهدنة، وجل ما جاء منهم إنما جاء من قبل إغراء اليهود"(1).

المبحث الثاني صلح الحديبية والتنمية والاقتصاد

إن من مقومات استقرار الأوطان هو الاقتصاد والتنمية، ولقد كان صلح الحديبية من أكبر أسباب التنمية والاستقرار الاقتصادي لدولة الإسلام وموطن الدعوة ومحضن الإيمان في المدينة. وأكتفي في تقرير ذلك اختصارًا بأن أقول: إن من أعظم المكتسبات الاقتصادية والتنموية التي تحققت من خلال صلح الحديبية هو ما وعد الله به نبيه ﷺ وأصحابه من الغنائم المستقبلية والازدهار الاقتصادي عمومًا مما سيدركونه أو لا يدركونه، ومما سيدركونه واختصهم به من غنائم خيبر خصوصًا، فقد "كان أول الفتح والمغانم فتح خيبر ومغانمها، ثم استمرت الفتوح والمغانم إلى انقضاء الدهر"[(2)]، كما في قوله تعالى: {وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلۡمُؤۡمِنِينَ} [سورة الفتح:20]، قال الطبري: "وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب ما قاله مجاهد، وهو أن الذي أثابهم الله من مسيرهم ذلك مع الفتح القريب المغانم الكثيرة من مغانم خيبر، وذلك أن المسلمين لم يغنموا بعد الحديبية غنيمة، ولم يفتحوا فتحًا أقرب من بيعتهم رسول الله ﷺ بالحديبية إليها من فتح خيبر وغنائمها، وأما قوله: {وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً} فهي سائر المغانم التي غنّمهموها الله بعد خيبر، كغنائم هوازن، وغطفان، وفارس، والروم، وإنما قلنا ذلك كذلك دون غنائم خيبر، لأن الله أخبر أنه عجل لهم هذه التي أثابهم من مسيرهم الذي ساروه مع رسول الله ﷺ إلى مكة، ولما علم من صحة نيتهم في قتال أهلها، إذ بايعوا رسول الله ﷺ على ألا يفروا عنه، ولا شك أن التي عُجلّت لهم غير التي لم تعجّل لهم"(3). لقد كان من أعظم نتائج هذا الصلح العظيم: الأمن الذي يتحقق به الاقتصاد ويزدهر، فقد كان في مكة وضواحيها أكبر أسواق العرب،

(1) الرحيق المختوم، 285.

(2) زاد المعاد في هدي خير العباد، 3/ 278.

(3)جامع البيان عن تأويل آي القرآن: 21/ 281.

كما كان الحج والعمرة من أكبر تجمعاتها، وما يحصل بذلك من نشاط تجاري وحركة اقتصادية وتبادل مالي، فأمّن صلح الحديبية الانتفاع من تلك الأنشطة الاقتصادية، والاستفادة من ذلك الحراك التجاري، وازداد بذلك الانفتاح التجاري والعائد الاقتصادي للموطن المحتضن للإسلام.

لقد كان فتح خيبر -الذي هو من أعظم ثمرات ونتائج صلح الحديبية- نُقلة هائلة في الاقتصاد والتنمية لموطن الإسلام (المدينة) ولأهله الذين كادوا قبل سنتين تقريبًا يموتون من الجوع بسبب حصار الأحزاب الجائر. وقد اعترف الصحابة بهذا الاستقرار الاقتصادي والتحسن المعيشي بسبب فتح خيبر، فقال ابن عمر ﷺ: ((ما شبعنا حتى فتحنا خيبر))(1).

وقالت عائشة -رضي الله عنها-: ((لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر))(2). بل ظهر ذلك اليسر وتلك السعة حتى في وليمة زواج رسول الله ﷺ من صفية بنت حيي -رضي الله عنها- بعد خيبر، قال أنس ﷺ: ((وجعل رسول الله ﷺ وليمتها التمر والأقط والسمن، فحصت الأرض أفاحيص، وجيء بالأنطاع، فوضعت فيها، وجيء بالأقط والسمن فشبع الناس))(3). بل إنه "لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم إياها من النخيل، حين صار لهم بخيبر مال ونخيل"(4). ويكفي عن هذا كله أن الله تعالى وصفها بأنها مغانم كثيرة، في قوله: {وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا} [سورة الفتح:20]. وبسبب صلح الحديبية نشطت التجارة وانتعش الاقتصاد وعادت الحياة إلى طريق التجارة المعروف الذي يربط مكة بالشام مرورًا بالمدينة وما حولها، بعد أن تعرض ذلك الطريق الاقتصادي لهزات عنيفة أثَّرت في الاقتصاد والتجارة في جزيرة العرب عمومًا وفي مكة خصوصًا، بسبب المعارك التي بين دولة الإسلام وبين قريش. "لقد كسدت تجارة قريش قبل الهدنة، فأرادت بعد عقدها أن تعود الى إرسال قوافلها التجارية على طريق مكة-الشام، بعد أن حرمت من سلوكها مدة طويلة، وفعلاً تحركت قوافلها الى الشام"[(5)]، وبذلك عاد الاقتصاد إلى الجزيرة، وانتفع بذلك خلق كبير.

بل إن ما نتج عن صلح الحديبية من فتح باب الاقتصاد وعودة طريق التجارة، كان سببًا في الاستقرار والأمن، تخوّفًا من الأضرار الاقتصادية وكساد الأسواق وتوقف حركة

---

(1) صحيح البخاري: 4/ ١٤٠.

(2) المرجع السابق.

(3) صحيح مسلم: 4/ 147.

(4) زاد المعاد في هدي خير العباد: 3/ 317.

(5) الرسول القائد: 292.

التجارة، فهدأت ثائرة القبائل التي كانت حانقة على دولة الإسلام وموطن الدعوة بسبب تعطل طرق التجارة لحربها، فقد كان "موقف القبائل تجاه المدينة قد بدأ يتغير بعد موقعة بدر وانتصار المسلمين فقد أحست القبائل - بعد انتصار النبي ﷺ على قريش، وأخذه طريق التجارة إلى الشام وإلى العراق، ومنع قوافلها من المرور- بأن مصالحها الاقتصادية معرضة للضرر، وكانت القبائل التي تعيش بين مكة والمدينة وعلى جنبات الطرق التجارية تستفيد من التعامل مع قوافل قريش، كما كانت تشارك فيها بنصيب ...، وكانت القبائل تجد في هذه الأسواق مجالاً لتصريف حاصلاتها، كما كانت تتزود منها بما تحتاج إليه ...، وكان توقف قوافل قريش يؤدي إلى الإضرار بمصالح هذه القبائل، كما تؤدي حالة الحرب بين مكة والمدينة إلى إرباك قريش، وهذا يؤدي بدوره إلى إضعاف النشاط التجاري في الأسواق الموسمية حول مكة. من أجل ذلك وقفت القبائل العربية التي كانت تعيش شمالي مكة في منطقة الحجاز ومنطقة نجد الغربية موقفًا عدائيًّا من الدولة اليثربية، واعتبرت وجودها ضارًّا بمصالحها. وحتى القبائل التي كانت على صلات ودية بيثرب قبل الإسلام كسليم ومزينة وغطفان، تحولت إلى موقف العداء لها، وأخذت تناوئها، وحاولت شن الغارات عليها"[1].

فكان صلح الحديبية محققًا للاستقرار الاقتصادي والاستقرار الأمني معًا، والأمن والاقتصاد لا ينفكان، وكثيرًا ما يقرن الله بين الأمن والرزق، وبين الخوف والجوع، كما في قوله تعالى: {ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۢ} [سورة قريش:4]، وقال تعالى: {وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ} [سورة النحل:112]، وقال تعالى: {أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا} [سورة القصص :57]. فالمقصود أنه قد "اطمأنّت العلاقات بعهد الحديبية بين قريش ومحمد [ﷺ] أعظم الطمأنينة، وأمن كلّ جانب صاحبه. واتجهت قريش كلها إلى التوسع في تجارتها، لعلها تستعيد من طريقها ما فقد أيّام اتصال الحرب بين المسلمين وبينها، وحين سدّت عليها طريق الشام وأصبحت تجارتها معرّضة للضياع"[2].

وخلاصة القول: إن هذا الصلح العظيم حقق نجاحًا باهرًا في رفع مستوى الاقتصاد، وتحسين مستوى المعيشة، وتنشيط حركة التجارة.

---

(1) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول صلى الله عليه وسلم: 397–98.

(2) حياة محمد صلى الله عليه وسلم: 240.

المبحث الثالث صلح الحديبية والرؤية المستقبلية

إن بناء الأوطان وصناعة الإنسان وتحقق الاقتصاد والعمران لا يتم -قبل توفيق الله- إلا برؤية ملهمة، وبصيرة صحيحة، واستشراف للمستقبل، فالخروج من بوتقة الفكر الآني، ورفض التقوقع في الواقع المعاش، إنما يكون بهمة مكللة بالعزم، وطموح متوج بالحزم، فلا بدَّ للمسيرة من رؤية ثاقبة، ونظرة مستقبلية صائبة لصالح الإسلام والمسلمين. لقد كان صلح الحديبية وما جرى بعده من فتح خيبر ومكة وغير ذلك مبنيًّا على رؤية نبوية منقطعة النظير، فقد كانت رؤيته الاستراتيجية – ومن أهدافه في حربه مع قريش بعد الأحزاب- أن ينقل المعركة بينه وبين قريش إلى عقر دارهم، وأن تتورط قريش أمام الرأي العام، وأن يحاصرهم سياسيًّا في عقر دارهم، وأن يحيّدها في قتالها معه، ولذلك قال النبي ﷺ بعد غزوة الأحزاب: ((الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم))[1]، وبالفعل استطاع النبي ﷺ أن ينقل المعركة بعيدًا عن وطنه إلى عقر دار قريش وقريبًا منها في (الحديبية) على بعد كيلومترات من عاصمتها، واستطاع أن يحاصرها سياسيًّا فيؤلب الرأي العام عليها بأنها تمنع محمدًا ﷺ وأصحابه من زيارة البيت، فأمنت بذلك دولته، واستقر وطنه، وأبعد عنه الاضطراب. ولتتم هذه الرؤية العظيمة صبر النبي ﷺ على استفزازات قريش ومناوشاتهم له قبل صلح الحديبية وأثناءه، فاستطاع ببراعة تجنب القتال الدموي وتحاشي المواجهة المباشرة معهم في معركة حربية، وما استطاع عدوه أن يفسد رؤيته ولا أن يجبره على تغيير خطته، ومن تلك المناوشات والاستفزازات ما جاء في حديث المسور بن مخرمة، ومروان: "... حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: ((إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين))، فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هو بقترة[2] الجيش، فانطلق يركض نذيرًا لقريش"[3]. ومن ذلك ما ذكره أنس بن مالك ﷺ فقال: ((أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غرة[4] النبي ﷺ، فأخذهم سلمًا فاستحياهم، فأنزل الله عز وجل: {وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم

(1) صحيح البخاري: 4/ ١١٠.

(2) الغبار الأسود. انظر: اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح: 8: 303.

(3) صحيح البخاري: 3/ ١٩٣.

(4) أي: غفلته. انظر: الإفصاح عن معاني الصحاح: 4/ 384.

بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ} [سورة الفتح:23]))[1]. ومن الاستفزازات الصبيانية التي قامت بها قريش في صلح الحديبية، تغيير بسم الله الرحمن الرحيم إلى باسمك اللهم، وتغيير محمد رسول الله إلى محمد بن عبد الله، جاء في حديث المسور بن مخرمة ومروان: "...فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتابًا، فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ: ((بسم الله الرحمن الرحيم))، قال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما أدري ما هو ولكن اكتب: باسمك اللهم، كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ: ((اكتب باسمك اللهم))، ثم قال: ((هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله))، فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: ((والله إني لرسول الله، وإن كذبتموني، اكتب: محمد بن عبد الله))[2]. ومن صور تلك الاستفزازات ما ذكر سلمة بن الأكوع رضي الله عنه فقال: "فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض، أتيت شجرة فكسحت شوكها فاضطجعت في أصلها، قال: فأتاني أربعة من المشركين من أهل مكة، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ فأبغضتهم، فتحولت إلى شجرة أخرى"[3].

إن من أكبر الأخطاء التي يقع فيها أصحاب الرؤى والأفكار أن يستجيبوا للضغوط والاستفزازات والمؤثرات التي يتعرضون لها، فيصرفهم ذلك عن إتمام أفكارهم، ويقطعهم عن العمل على تحقيق رؤاهم، وهذا ما يستفاد من هدي النبي ﷺ في صلح الحديبية.

وكان للنبي ﷺ -أيضًا- رؤية استراتيجية أخرى أراد تحقيقها من خلال صلح الحديبية، وهي انفتاحه على العرب ووصوله إلى الناس وتمكنه من مخاطبة العالم، ولا يتم له ذلك إلا بتحييد قريش التي حالت بقتالها له دون تحقيق هذه الرؤية وتحصيل ذلك الهدف، فقال ﷺ معلنًا عن هذا الهدف: ((إن قريشًا قد نهكتهم الحرب، وأضرت بهم، فإن شاءوا ماددتهم مدة، ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر: فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا[4]، وإن هم أبوا، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذن الله أمره))[5]. وفي رواية عند أحمد: ((يا ويح قريش، لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم

(1) صحيح مسلم: 4/ ١٩٥.
(2) صحيح البخاري: 3/ 195.
(3) صحيح مسلم: 4/ 190.
(4) أي: استراحوا. أعلام الحديث: 2/ 1338.
(5) صحيح البخاري: 3/ 194.

لو خلوا بيني وبين سائر الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون))[1]. فالناس "قبل الصلح لم يكونوا يختلطون بالمسلمين ولا تتظاهر عندهم أمور النبي ﷺ كما هي، ولا يَحِلُّون بمن يعلمهم بها مفصلة، فلما حصل صلح الحديبية اختلطوا بالمسلمين وجاءوا إلى المدينة، وذهب المسلمون إلى مكة وحلوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يستنصحونه، وسمعوا منهم أحوال النبي ﷺ مفصلة بجزئياتها ومعجزاته الظاهرة وأعلام نبوته المتظاهرة وحسن سيرته وجميل طريقته، وعاينوا بأنفسهم كثيرًا من ذلك، فما زلت نفوسهم إلى الإيمان حتى بادر خلق منهم إلى الإسلام قبل فتح مكة، فأسلموا بين صلح الحديبية وفتح مكة، وازداد الآخرون ميلاً إلى الإسلام، فلما كان يوم الفتح أسلموا كلهم لما كان قد تمهد لهم من الميل"[2]. وأما أكبر رؤية مستقبلية استراتيجية نتجت عن واقعة الحديبية فهي فتح مكة، فإن أحداث الحديبية "كانت مقدمة بين يدي الفتح الأعظم الذي أعز الله به رسوله وجنده، ودخل الناس به في دين الله أفواجًا، فكانت هذه الهدنة بابًا له ومفتاحًا ومؤذنًا بين يديه، وهذه عادة الله سبحانه في الأمور العظام التي يقضيها قدرًا وشرعًا أن يوطئ لها بين يديها مقدمات وتوطئات تؤذن بها، وتدل عليها"[3].

وإن من أعظم الدروس المستفادة من حادثة الحديبية مما يتعلق ببناء الرؤية المستقبلية، أن أي رؤية وفكرة قد تلاقي في أول أمرها من لا يقبلها ويعترض عليها ولا يرضى عنها، وهذا ما حصل مع النبي ﷺ في صلح الحديبية، فقد كان أكثر أصحابه غير راضين عن هذا الصلح في بادئ الأمر، ويرونه ضيمًا ومهانة وذلة، فالكثرة الكاثرة من الصحابة كانوا غير راضين عن الصلح، ولو كان ثمة استفتاء وتصويت آنذاك عن نسبة الرضا عن الصلح عند الصحابة لكشف عن إحصائية كبيرة جدًّا، ويكفي في بيان ذلك أن النبي ﷺ أمرهم أن يحلقوا فامتنعوا[4]، حتى دخل على أم سلمة -رضي الله عنها- مغضبًا، قال الراوي: "فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: ((قوموا فانحروا ثم احلقوا))، قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات[5]، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة،

---

(1) مسند الإمام أحمد: 31/ ٢١٢.

(2) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: 12/ 140.

(3) زاد المعاد في هدي خير العباد، 3/ 275.

(4) قال العيني: هذا لم يكن منهم مخالفة لأمره ﷺ، وإنما كانوا ينتظرون إحداث الله تعالى لرسوله ﷺ خلاف ذلك، فيتم لهم قضاء نسكهم. عمدة القاري شرح صحيح البخاري: 14/ 14، وذُكرت أسباب أخرى. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري: 4/ 347.

(5) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: 11/ ٢٢٥.

فذكر لها ما لقي من الناس"[1]، وفي رواية عند أحمد: "فدخل على أم سلمة، فقال: ((يا أم سلمة، ما شأن الناس؟))[2]، وفي مغازي الواقدي أنه قال: ((عجبًا يا أم سلمة! إني قلت للناس: انحروا واحلقوا وحلوا مرارًا، فلم يجبني أحد من الناس إلى ذلك وهم يسمعون كلامي وينظرون في وجهي))[3]. وجاء في حديث المسور بن مخرمة ومروان: "كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل رسول الله ﷺ على نفسه، دخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا أن يهلكوا"[4]. بل ها هو ثاني رجل في الصحابة - وهو عمر بن الخطاب ﷺ- يصرح باعتراضه على هذا الصلح، ويراجع رسول الله ﷺ بل لا يقتنع بقوله، ويذهب إلى أبي بكر ﷺ، وقد أخبر عمر ﷺ عما جرى منه بعد الصلح، فقال: "... فأتيت نبي الله ﷺ فقلت: ألست نبي الله حقًّا، قال: ((بلى))، قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل، قال: ((بلى))، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا؟ قال: ((إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري))، قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: ((بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام))، قال: قلت: لا، قال: ((فإنك آتيه ومطوف به))، قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقًّا؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا؟ قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق، قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به، قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً"[5]. وقد أشارت أم المؤمنين على النبي ﷺ بعملٍ ساعد في إنهاء المشكلة الحاصلة، وهذا يذكرنا بأهمية الزوجة الصالحة العاقلة، وعلى الرجال لزوم طاعة ربهم ورسوله ﷺ، ويعملوا لنصرة دينهم وفق ذلك. "وقد صدّقت الحادثات رأي [النبي] محمد [ﷺ] في ذلك بأسرع ما كان يظن أصحابه، ودلت على أن الإسلام كسب من صلح الحديبية أعظم الكسب"[6]. لقد "كان أشد ما أحفظ بعض المسلمين من الصلح: أن من أتى المسلمين من قريش ردّ، ومن جاء قريشًا من المسلمين لا يرد، وقد أثبت الواقع أنه لم يرتد مسلم، وبذلك

(1) صحيح البخاري: 3/ 196.
(2) مسند الإمام أحمد: 31/ ٢٢٠.
(3) المغازي:، 2/ 613.
(4) مسند الإمام أحمد: 31/ 221. وحسنه شعيب الأرناؤوط في تحقيقه للمسند.
(5) صحيح البخاري: 3/ 196.
(6) حياة محمد صلى الله عليه وسلم: 239.

أصبح هذا البند من الشرط غير ذي خطر، كما كان النبي يعلم بثاقب فكره، واستضاءة قلبه بنور الوحي وفيوضاته أن الفقرة الأولى من هذا الشرط ستجر على قريش متاعب كثيرة، قد تضطرها إلى التنازل عنه، بل والإلحاح في ذلك، وهذا ما صدّقته الحوادث بأسرع مما كان يظن"[1]. قال ابن القيم: "وكان في الصورة الظاهرة ضيمًا وهضمًا للمسلمين، وفي الباطن عزًّا وفتحًا ونصرًا، وكان رسول الله ﷺ ينظر إلى ما وراءه من الفتح العظيم والعز والنصر من وراء ستر رقيق، وكان يعطي المشركين كلما سألوه من الشروط التي لم يحتملها أكثر أصحابه ورؤوسهم، وهو ﷺ يعلم ما في ضِمْن هذا المكروه من محبوب {وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ} [سورة البقرة: 216].

((وربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سببًا ما مثله سبب))

فكان يدخل على تلك الشروط دخول واثق بنصر الله له وتأييده، وأن العاقبة له، وأن تلك الشروط واحتمالها هو عين النصرة، وهو من أكبر الجند الذي أقامه المشترطون ونصبوه لحربهم وهم لا يشعرون، فذلوا من حيث طلبوا العز، وقهروا من حيث أظهروا القدرة والفخر والغلبة، وعز رسول الله ﷺ وعساكر الإسلام من حيث انكسروا لله واحتملوا الضيم له وفيه، فدار الدور وانعكس الأمر وانقلب العز بالباطل ذلاً بحق، وانقلبت الكسرة لله عزًّا بالله، وظهرت حكمة الله وآياته وتصديق وعده ونصرة رسوله على أتم الوجوه وأكملها التي لا اقتراح للعقول وراءها"[2]. ولله العزة جميعًا. وإن لنا هنا لوقفة ترينا مبلغ صبر الرسول واحتماله، وتنازله عن بعض حقوقه في سبيل إتمام الصلح، ولو أن النبي استجاب لرغبات بعض المسلمين أو لهوى في نفسه لما تمّ الصلح ...، وإن ما حدث في صلح الحديبية ليُعدُّ مثلاً يحتذى في المساهلة في الشروط طلبًا للأمن والسلام، فهل يكون فيما صنعه رسول الله قدوة في عالمنا اليوم، الذي يشاهد كل يوم مؤتمرات واجتماعات في سبيل السلام والحد من التسابق المجنون في سبيل التسلح ثم تنتهي إلى لا شيء؟!![3]. إن من أعظم الدروس المستفادة من صلح الحديبية لأصحاب الرؤية

(1) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة: 2/ 340..

(2) زاد المعاد في هدي خير العباد: 3/ 275-276.

(3) المرجع السابق: 2/ 336.

المستقبلية والنظرة الاستشرافية: أن كل رؤية وفكرة وخطة لن تكون محل ترحيب في أول أمرها، وأنها تحتاج إلى صبر وتضحية وجهد حتى يقتنع بها الناس ويكون لها الأثر في نصرة الإسلام والمسلمين، ونية حسنة وعمل خالص لوجه الله تعالى..

خاتمة البحث: في ختام هذا البحث ألخص أهم ما أراه من النتائج والتوصيات:

- إن صلح الحديبية الذي وقع في شهر ذي القعدة من السنة السادسة في موضع الحديبية يُعدُّ من أهم أحداث السيرة المحورية الذي كان له أثر فيما بعده من الأحداث.
- إن في أحداث صلح الحديبية دروسًا عظيمة يُستفاد منها في بناء الوطن وإقامة الدولة.
- إن في صلح الحديبية مقومات بناء الاقتصاد وتحقيق التنمية ومقومات النهضة وإقامة وصناعة المؤثرات الاقتصادية.
- إن في صلح الحديبية معالم تحقيق الرؤية الاستراتيجية، وتطبيق النظرة المستقبلية، واستلهام المستقبل، واستشراف الآتي، والصبر والمرونة في تحقيق الرؤية دون الاستجابة للاعتراضات الداخلية والضغوط الخارجية.
- وأوصي باستلهام العبر من مواقف السيرة النبوية مما يتعلق بجوانب بناء الدولة والنهضة بالوطن وتحقيق الاقتصاد والتنمية والرؤية المثمرة، ومن تلك المواقف التي تحتاج إلى دراسات استشرافية: الوثيقة التي هي كتاب النبي ﷺ عند دخوله المدينة، وأيضًا التدابير النبوية في بناء الدولة في أول قدومه المدينة، ومن ذلك مخاطبات النبي ﷺ ورسائله.

أخيرًا .. هذا ما تهيأ إيراده، وتيسر إعداده، وأعان الله على جمعه، فالحمد لله أولاً وآخرًا، وباطنًا وظاهرًا، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين

مراجع البحث

ابن حجر العسقلاني، أحمد. "فتح الباري شرح صحيح البخاري". د.ط، بيروت: دار المعرفة، 1379.

ابن حنبل، أحمد. "مسند الإمام أحمد". ط1. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1421.

ابن عاشور، محمد الطاهر. "التحرير والتنوير". د.ط، تونس: الدار التونسية، 1984.

ابن قتيبة الدينوري، عبد الله. "المعاني الكبير في أبيات المعاني". ط1. حيدر آباد الدكن: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٦٨هـ، ١٩٤٩م.

ابن قيم الجوزية، محمد. "زاد المعاد في هدي خير العباد". ط27. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1415.

ابن كثير، إسماعيل. "تفسير القرآن العظيم". ط2. مكة المكرمة: دار طيبة، 1420.

ابن هبيرة، يحيى. "الإفصاح عن معاني الصحاح". د.ط، دار الوطن، 1417.

ابن هشام الحميري، عبد الملك. "السيرة النبوية". ط2. مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1375.

أبو شُهبة، محمد. "السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة". ط8. دمشق: دار القلم، 1427.
البخاري، محمد. "صحيح البخاري". ط1. دار طوق النجاة، 1422.
البِرْماوي، محمد. "اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح". ط1، سوريا: دار النوادر، 1433.
الحاكم النيسابوري، محمد. "المستدرك على الصحيحين". ط1. بيروت: دار الكتب العلمية، 1411.
الحكمي، حافظ. "مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة". د.ط، المدينة المنورة: مطابع الجامعة الإسلامية، 1406.
الحلبي، الحسن. "المقتفى من سيرة المصطفى". ط1. القاهرة: دار الحديث، 1416.
الحموي، ياقوت. "معجم البلدان". ط2. بيروت: دار صادر، 1995.
الخركوشي، عبد الملك. "شرف المصطفى". ط1. مكة: دار البشائر الإسلامية، 1424.
خطاب، محمود. "الرسول القائد". ط6. بيروت: دار الفكر، 1422.
الخطابي، حمد. "أعلام الحديث". ط1، مكة المكرمة: جامعة أم القرى -مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، 1409 هـ - 1988.
الدِّيار بَكْري، حسين. "تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس". د.ط، بيروت: دار صادر، د.ت.
الزَّوْزَني، حسين. "شرح المعلقات السبع". ط1. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢ م.
السِّجِسْتاني، سليمان. "سنن أبي داود". د.ط، صيدا – بيروت: المكتبة العصرية، د.ت.
سعد، محمد. "الطبقات الكبرى". ط1. بيروت: دار الكتب العلمية، 1410.
السفاريني، محمد. "شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد". ط2. بيروت: المكتب الإسلامي، 1391.
الشريف، أحمد. "مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول صلى الله عليه وسلم". د.ط، بيروت: دار الفكر العربي، د.ت.
الطبري، محمد. "جامع البيان عن تأويل آي القرآن". ط1. القاهرة: دار هجر، 1422.
العيني، محمود. "عمدة القاري شرح صحيح البخاري". د.ط، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.
الفارسي، علي. "الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان". ط1. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1408.
القشيري، مسلم. "صحيح مسلم". د.ط، تركيا: دار الطباعة العامرة، ١٣٣٤هـ
المباركفوري، صفي الرحمن. "الرحيق المختوم". ط1. دمشق: دار العصماء، 1427.
المشّاط، حسن. "إنارة الدجى في مغازي خير الورى صلى الله عليه وسلم". ط2. جدة: دار المنهاج، 1426.
المقريزي، أحمد. "إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع". ط1 بيروت: دار الكتب العلمية، 1420.
النووي، يحيى. "المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج". ط2. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1392.
هيكل، محمد. "حياة محمد صلى الله عليه وسلم". ط3. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996.
الواقدي، محمد. "المغازي". ط3. بيروت: دار الأعلمي، 1409